الآليات الحجاجية في الخطاب القرآني

- دراسة في آيات من سورة البقرة -

أ. تومي عيسى

قسم الآداب واللغة العربية، المدرسة العليا للأساتذة بورقلة

الملخص: يزخر الخطاب القرآني في سورة البقرة باللغة الحجاجية بفضل تعدّد موضوعاته وتنوّع المخاطبين فيه؛ لذلك نجده يوظف كثيرا من الآليات الحجاجية: لغوية؛ بلاغية؛ تداولية... بغرض التأثير على أولئك المخاطبين وحملهم على الاقتناع والامتثال لما جاء به، وتجسيده في مواقفهم وسلوكاتهم المختلفة.

الكلمات المفاتيح: خطاب قرآني؛ آليات حجاجية؛ تداولية

Argumentative mechanisms in the Quranic speech

Study in the verses of Surat Al Baqarah

Abstract: Quranic discourse in surat al-baqarah is rich in argumentative language due for multiple levels and multiple addressees in it, so we find it employs many of the periorbital mechanisms;language; rhetorical; deliberative to influence those audiences and get them to comply with the conviction and what he brought, and reflected in the different attitudes and their behaviors.

Key words: Quranic speech ; Argumentative mechanisms ; Deliberative.

مقدمة: الخطاب القرآني خطاب حجاجي لأنه جاء ردّا على خطابات تعتمد عقائد ومناهج فاسدة... إنّه يطرح أمرا أساسيا يتمثّل في عقيدة التوحيد، ويقدّم الحُجج بمستويات

مختلفة ومدعّمة لهذا الأمر ضدّ ما يعتقده المتلقّون من المشركين والملحدين ومنكري النبوّة والمعادين والمجادلين.(1)

والخطاب القرآني في سورة البقرة هو من هذا القبيل، إنّه خطاب يزخر باللغة الحجاجية بفضل تعدّد موضوعاته وتنوّع المخاطبين فيه. ولبيان ذلك سيتم الاعتماد على مجموعة من الآليات الحجاجية المختلفة للكشف عن الاستراتيجية الحجاجية في خطاب السورة وكيفية توظيفها للتأثير على المخاطبين وجعلهم يقتنعون بهذا الخطاب ويجسدونه في مواقفهم وسلوكاتهم. ومن جملة هذه الآليات نجد:

1- الروابط الحجاجية: الروابط الحجاجية وحدات مورفولوجية (مورفيمات) تصل بين ملفوظين أو عدة ملفوظات يجرى سوقها في إطار استراتيجية حجاجية واحدة.

إنّها نوع من العناصر النحوية والظروف مثل (الواو، الفاء، لكن، إذن، حتى لأنّ، بل، لاسيما، بما أنّ، إذ، لا...إلّا... إلخ) وتقوم بالربط بين فعلين لغويين اثنين وبالتالي فهي موصلات تداولية تعمل على تفكيك مكونات الفعل اللغوي لتجعل منها أفعالا لغوية يحمل عليها وهي منفصلة بعضها عن بعض.(2)

والروابط الحجاجية كثيرة في خطاب السورة، وتكمن قيمتها الحجاجية في كونها تضطلع بوظيفتين: الرّبط الحجاجي بين قضيتين، وترتيب درجاتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب.(3) ومن هذه الروابط:

– **الرّابط الحجاجي (الواو):** تُعدّ الواو من أهم الروابط الحجاجية، إذ لا يقتصر دورها على مجردّ الجمع بين الحجج فحسب، بل تعمل على تقوية الحجج بعضها ببعض لتحقيق النتيجة المرجوّة. وهي من الروابط الحجاجية المدعّمة للحجج المتساوقة أو المتساندة (التي تخدم نتيجة واحدة)، والأمثلة على ذلك كثيرة في خطاب السورة، ومنها قوله تعالى: ﴿**آلم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ .(4)

فالرابط الحجاجي (الواو) في هذه الآيات جمع بين عدد من الحجج المتساوقة كما قام بترتيبها لتحقق النتيجة المرجوّة؛ إنّها الهدى الحاصل في الدّنيا والفلاح الحاصلُ في

الآخرة(5).﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾. ويمكن تمثيل الحجج الواردة في هاته الآيات وفق السلم الحجاجي التالي:

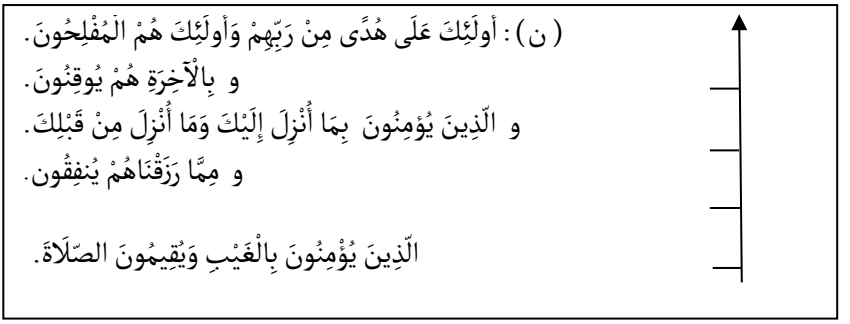

– **الرّابط الحجاجي (حتّى):** وهي من الرّوابط المتساوقة حجاجيا والمدرجة للحجج القوية. والحجج المربوطة بواسطة هذا الرّابط ينبغي أن تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، أي أنّها تخدم نتيجة واحدة، والحجة التي ترد بعد هذا الرابط تكون هي الأقوى، لذلك فإنّ القول المشتمل على الأداة (حتّى) لا يقبل الإبطال والتعارض الحجاجي.(6)

قال تعالى: ﴿ **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...**﴾ . (7)

فالحجّة الأقوى عند الفريقين من اليهود والنّصارى تتمثّل في أن يتّبع النّبي - صلّى الله عليه وسلّم- ملّتهم، ﴿**حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...**﴾ وهي حجة تسير نحو تحقيق نتيجة هي الإيمان بما جاء به النّبي، وتصديقهم دعوته، وهذا لم يتحقّق لأنّه << لمّا كان اتّباع النّبي ملّتهم مستحيلا كان رضاهم عنه كذلك >>. (8)

ويمكن تمثيل ذلك وفق السّلم الحجاجي التّالي:

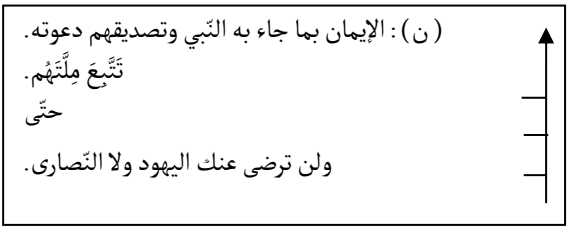

- **الرّابط الحجاجي (لكن):** هي من أدوات التعارض الحجاجي، وهي حرف يفيد الاستدراك << ومعنى الاستدراك أن تنسب حكما لاسمها يخالف المحكوم عليه قبلها، كأنّك لمّا أخبرت عن الأول بخبر، خفت أن يتوهّم من الثاني مثل ذلك، فتداركت بخبره إن سلبا وإن إيجابا، ولذلك لا تكون إلّا بعد كلام ملفوظا به أو مقدّر... ولا تقع (لكن) إلّا بين متنافيين ومتغايرين بوجه ما ... والتغاير في المعنى بمنزلته في اللّفظ >>.(9)

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ . (10)

فقد أفاد الرابط الحجاجي (لكن) في الآية الأولى تعارضا حجاجيا بين حجتين: فالأولى هي ادّعاء المنافقين الإصلاح وجعله مقصورا عليهم ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ ، فزعموا بأنّهم على الصواب وأنّهم بعيدين كلّ البعد عن الإفساد الذي نُهوا عنه، وهذه الحجة تخدم نتيجة (ن)، هي محاولتهم خداع المؤمنين.

أمّا الحجة الثانية فهي الواردة بعد الرابط (لكن)، وهي عدم شعور هؤلاء بما يقترفون من الشرّ والفساد، وهذه الحجة تخدم نتيجة مضادة (لا-ن) وهي انكشاف حقيقتهم وإثبات الفساد في حقّهم وجعله مقصورا عليهم. ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ...**﴾ ويمكن توضيح هذا التعارض الحجاجي بين الحجّتين في الشّكل التالي:

حيثُ ح1، و ح2 حجتان، و (ن) النتيجة، و (لا-ن) النتيجة المضادة التي تتوجّه إليها الحجة الأقوى، وهي الحجة (ح2) الواردة بعد الرابط الحجاجي (لكن) إذ هي الحجة التي توجّه الخطاب برمّته. (11)

2- **العوامل الحجاجية:** وهي وحدات مورفولوجية (مورفيمات) إذا جرى تطبيقها في محتوى أو ملفوظ معين يؤدّي إلى تحويل الطاقة الحجاجية لذلك الملفوظ. إذ يقوم العامل

الحجاجي بالربط بين وحدتين دلاليتين داخل الفعل اللغوي نفسه، وهو على هذا الأساس موصل قضوي، يحمل على المكونات داخل الفعل اللغوي، فيبقى هذا الفعل ملتحما.(12)

ويتضح مفهوم العامل الحجاجي من خلال دراسة المثالين التاليين:

أ- الساعة تشير إلى الثامنة، أسرع.

ب- لا تشير الساعة إلّا إلى الثامنة، أسرع.

نلاحظ أنّ القول (أ) سليم ومقبول تماما، أمّا القول (ب) فيبدو غريبا ويتطلّب سياقا خاصا حتى نستطيع تأويله.

وبالعودة إلى المثال (أ) (الساعة تشير إلى الثامنة) نجد له إمكانات حجاجية كثيرة، فقد يخدم هذا القول نتائج من قبيل: الدعوة إلى الإسراع، التأخّر والاستبطاء، هناك متسع من الوقت...إلخ. وبعبارة أخرى فهو يخدم نتيجة من قبيل: (أسرعْ)، كما يخدم النتيجة المضادة لها (لا تُسرعْ). لكن عندما دخل عليه العامل الحجاجي (لا... إلّا...) فإنّ إمكاناته الحجاجية تقلّصت، وأصبح الاستنتاج العادي له والممكن هو: (لا تشير الساعة إلّا إلى الثامنة، لا داعي للإسراع). (13)

و تختلف العوامل الحجاجية عن الروابط الحجاجية في كونها لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة من الحجج)، بل تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون بقول ما، وتضمّ مقولة العوامل الحجاجية أدوات من قبيل: (ربّما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما...إلّا...، وجلّ أدوات القصر).(14)

ومن العوامل الحجاجية الواردة في آيات السورة نجد:

– **العامل الحجاجي (لا...إلّا...) :** وهو من التراكيب التي تترتّب فيها الحجج حسب درجتها الحجاجية في سلّم حجاجي واحد، فهو عامل يوجه القول وجهة واحدة نحو الانخفاض، وهو ما يستثمره المرسل عادة لإقناع المرسل إليه.(15)

ويمكن تمثيله وفق المخطط التالي:

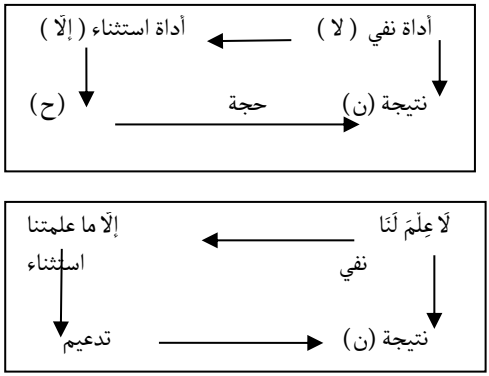

ومثال ذلك قوله تعالى:﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾. (16) فأسلوب القصر بالعامل الحجاجي (لا...إلّا...) في هاته الآية الكريمة مناسب لمقام تأدّب الملائكة مع الله سبحانه، و<< افتتاح كلامهم بالتسبيح وقوف في مقام الأدب والتعظيم لذي العظمة المطلقة >>.(17) وقد أفاد الاستثناء الوارد بعد الأداة (إلّا) في هذا التركيب تدعيما للحجة المتضمنة في قول الملائكة: (**لَا عِلْمَ لَنَا**). إنّه اعتراف بالعجز وطلب للاعتذار من الله سبحانه عن مراجعتهم إياه — حينما أخبرهم بأنّه سيجعل في الأرض خليفة - في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ... ﴾. (18)

– **العامل الحجاجي (إنّما):** تفيد القصر وهي في معنى (ما... إلّا...)، ومن الآيات التي ورد فيها هذا العامل الحجاجي، قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾. (19)

ويقتصر دور هذا العامل على **الحجاج** لا على الإخبار، وهو ما تنبّه إليه العلماء العرب القدماء. يقول **عبد القاهر الجرجاني** (ت 471هـ): << اعلم أنّ موضوع (إنّما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحّته... تفسير ذلك أنّك تقول للرجل: (إنّما هو أخوك) و(إنّما هو صاحبك القديم)؛ لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحّته، ولكن لمن يعلمه ويُقرّ به، إلاّ أنّك تريد أن تُنبّهه للذي يجب عليه من حقّ الأخ وحُرمة الصاحب>>.(20)

فقد بيّن أنّ (إنّما) لا تأتي لإعطاء معلومات جديدة أو خبر يجهله المخاطب، وإنّما تتمثّل وظيفتها في كونها تزيد في القوة الحجاجية للملفوظ الوارد بعدها.

لذلك فإنّ قول المنافقين الوارد بعد أداة القصر (إنّما) ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾ يمثل الحجّة الأقوى من بين حججهم المذكورة في نص الآية الكريمة السابقة، فقد أثبت العامل الحجاجي (إنّما) حقيقة نفاقهم، وأنّ ما يقومون به من إظهار الودّ للمؤمنين المتضمّن في قولهم: (آمنّا) هو من باب السخرية والاستهزاء بالمؤمنين، وهو ما يؤكّده قولهم لرؤسائهم : (**إِنَّا مَعَكُمْ**) ويعزّزه قولهم بعد ذلك : (**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**).(21) ليكون هذا القول بمثابة الحجة الأقوى والتي تتضمّن نتيجة (ن) هي من قبيل: (إنّنا باقون على نفاقنا). ويمكن تمثيل الحجج الواردة في هذه الآية وفق السلم الحجاجي التالي:

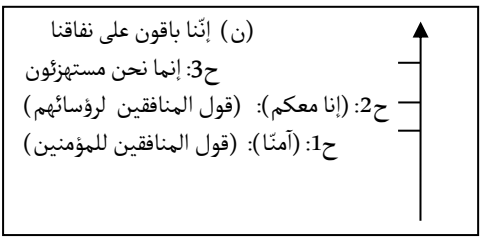

3- أفعـال الكـلام: يرى (فان إيميرن **V.Eemeren**) و (غروتندورست **R.Grootendorst**) (**) أنّ الأفعال الكلامية هي من الأدوات اللغوية التي تسهم بدور فعال في الحجاج، كما يريان أيضا بأنّ الهدف من الخطاب هو الفيصل لوصف الخطاب بأنّه خطاب حجاجي من عدمه، ذلك أنّ الهدف من الخطاب الحجاجي هو إزالة شك المرسل إليه في وجهة النظر محلّ الخلاف، ومن أجل ذلك قام الباحثان بتتبّع دور كلّ صنف من الأفعال الكلامية التي صنّفها (**سورل**)، فوجدا أنّ بعضها ذو دور حجاجي أمّا بعضها الآخر فليس له ذلك الدّور.(22)

ويُعد فعل الكلام التوجيهي **الاستفهام** من أقوى وأنجع الأفعال الكلامية حجاجا وهو ما يعتمد عليه كثيرون ويتوسلون به في فعلهم الحجاجي، إذ إنّ طرح السؤال يمكن أن يُضخّم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بالجواب، كما يمكن أن يلطّف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم. **(23)**

ومن نماذج الأفعال الكلامية التي يتجلى فيها الحجاج؛ الاستفهام التقريري؛ كونه أشد إقناعا للمرسل إليه، وأقوى حجّة عليه، كما في قوله تعالى مخاطبا ملائكته: ﴿**قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾.(24) فالاستفهام في قوله: (**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ**...) **تقريري**، لأنّ ذلك القول واقع لا محالة، والملائكة يعلمون وقوعه ولا ينكرونه.(25) فغاية السؤال هنا هي التقرير لإقامة الحجّة على المخاطبين. << والاستفهام هنا هو الحجج ذاتها كما أنّه فعل حجاجي بالقصد المضمر فيه، وفق ما يقتضيه السياق >>.(26)

كما نجد الحجاج بالاستفهام التقريري في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾. (27) فقوله سبحانه: (**هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**...) استفهام تقريري وتحذير، وذلك أنّه قرّرهم على إضمار نية عدم القتال اختبارا وسبرا لمقدار عزمهم عليه، ليكون ذلك **حجّة** عليهم - إنْ هم لم يقاتلوا - والملاحظ أنّ مراعاة حال المخاطب تبدو واضحة في هذا المقام ولذلك جاء في الاستفهام بالنّفي في معنى(هل لا تقاتلون) ولم يقل: (هل تقاتلون) لأنّ المستفهم عنه (عدم القتال) هو الطرف الرّاجح عند **المستفهِم**، لذلك أراد أن يُقرّرهم ويُحذّرهم ممّا هم مقبلون عليه. (28)

4 - الاستعـارة: وهي نوعان :(29) - **استعارة (بديعية)**: غير حجاجية تكون مقصودة لذاتها ولا ترتبط بمقاصد المتكلمين وأهدافهم الحجاجية.

- **واستعارة حجاجية**: وهي من الآليات اللغوية التي يمارسها المتكلم بقصد توجيه خطابه، لأجل تحقيق أهدافه الحجاجية. وهي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التواصلية والتخاطبية.

ومن الاستعارات الحجاجية الواردة في خطاب السورة قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.(30) فكأنّ هؤلاء الكفار من شدّة كفرهم وإعراضهم عن الحقّ ورفضهم له، جعل على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم غطاء بحيث لا يصل إليها

الإيمان. ولقد حقّقت الاستعارة في لفظ (**ختم**) في الآية دلالة لا يمكن استيعابها في أي لفظ آخر، فهي مناسبة لحال هؤلاء، لأنّ الختم لا يكون إلّا على الشيء المُغلق؛ وإنّ هؤلاء الكافرين عندما أغلقوا قلوبهم وما عادوا مستعدين لسماع الحقّ؛ ختم الله عليها فكان جزاؤهم من جنس عملهم.

إنّ اللفظ الاستعاري (ختم) هو الذي سيقع بالطبع في أعلى مراتب السلم الحجاجي.(31) فهو يمثّل الحجة الأقوى من بين الحجج الواردة في هذا الخطاب والتي يمكن تمثيلها حسب السلم الحجاجي التالي :

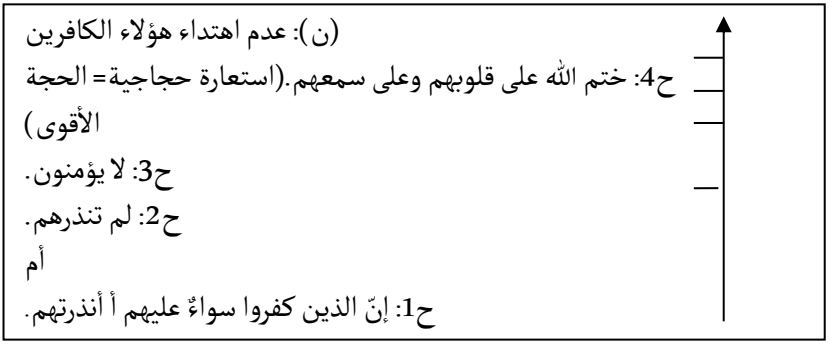

5 - التّشبيه (التمثيل): يعدّ أسلوب التشبيه(التمثيل) في الكلام من أبرز أساليب الحجاج والإقناع، فقد استخدمه القرآن الكريم كمعيار للصدق والدّقة في التعبير بالصورة لإبراز المعاني المجرّدة في صور حسية رائعة وموجزة لها وقعها وتأثيرها في النّفس. (32)

وقد اختلف العلماء العرب في نظرتهم للتشبيه والتمثيل من حيث الفروق بينهما إذ يرى بعضهم أنّه لا فرق بين الاثنين، ومن هؤلاء **ضياء الدّين بن الأثير** (ت 637هـ) في كتابه (**المثل السائر**)، فهما عنده شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع. (33) في حين يرى آخرون أنّ بين التمثيل والتشبيه فروقا، ومن هؤلاء (**عبد القاهر الجرجاني**) في مؤلّفه (**أسرار البلاغة**)، فهو يعتبر التشبيه أعمّ من التمثيل، حيث يقول: << اعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا >>.(34)

كما تنبّه **الجرجاني** إلى القيمة الحجاجية للتمثيل، وبيّن دوره في التأثير في النفوس، وذلك في قوله: << واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب

المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها... فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم... وإن كان ذمّا كان مسّه أوجع، وإن كان **حجاجا** كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر... >>. (35) والمتأمل في القرآن الكريم يلاحظ أنّه في كثير من المواضع يتّخذ من أسلوب التمثيل سبيلا للإقناع والتأثير في النفوس لِما له من قدرة على توضيح المعاني وتجسيدها ولِما له من أثر في قبول تلقي الدّعوة والاستجابة لها.

ومن الآيات التي ورد فيها التشبيه (التمثيل) قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**﴾.(36)

فبعد أن شبّه الحق - سبحانه - حال المنافقين حين قصدوا من النّفاق غاية فأخفقت مساعيهم وضاعت مقاصدهم بحال التّجار الذين لم يحصلوا من تجارتهم على ربح على سبيل الاستعارة، << أعقب تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة، ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ وهذه طريقة تشبيه التمثيل، إلحاقا لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة، لأنّ النّفس إلى المحسوس أميل >>.(37)

إنّ أسلوب التمثيل في القرآن الكريم يذهب بعيدا في الإقناع لما له من قوة في التأثير بفضل خصائصه الفنية والبلاغية التي تقرّب المقاصد إلى النفس في صورة مثيرة، وقد استُعمل لعقد الصلة بين السياق المشاهد والسياق الغائب، لاستحضار **الحجة** التي أدخلت في الخطاب. إنّه يسوق **الحجة** الظاهرة بطريقة خالية من الجدل، ويسوق الخبر مقرونا بالحجة والدليل ليلقى القبول والاستجابة من المخاطبين، كما في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.(38) وهو يعتمد على التشبيه الذي يزيد المعنى وضوحا والتعبير جمالا، فالتشبيه يوضح ما خفي فهمه، وذلك بإبراز المعقول الخفي في صورة المحسوس الجليّ، ليتمكن المتلقي من إدراك المعنى المقصود.(39)

6 - المناظـرة: المناظرة خطاب إقناعي يهدف إلى التأثير في المرسل إليه لبناء موقف جديد أو تغيير ذلك الموقف، وهو ما يستدعي - حسب طه عبد الرحمن- قصدين حواريين؛ هما : **قصد الادّعاء، وقصد الاعتراض** إذ يرتبط قصد الادّعاء بالمتكلم الذي يدّعي أمرا فيستعدّ لإقامة الدليل عليه، أمّا قصدُ الاعتراض فيرتبط بالمخاطَب الذي له حقّ مطالبة المتكلم بإيراد الدليل على ادّعائه. والذي يفقد هذا الحقّ من الطرفين المتناظرين يكون إمّا دائم التسليم بما يدّعيه الناطق و إمّا عديم المشاركة في مدار الكلام. (40)

ويعتمد أسلوب المناظرة على المحاجة والاستدلال، وكافة وسائل الإقناع لردّ حجة الخصم. ومن هذا النوع في خطاب السورة نجد حجاج نبي الله إبراهيم - عليه السلام- مع الملك (النمرود) بشأن صفات الله ربّ العالمين في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.(41) ويبدو أنّ نبي الله إبراهيم هو من بدأ هذه المناظرة بالدعوة إلى توحيد الله << واحتج بحجة واضحة يدركها كلّ عاقل وهي أنّ الربّ الحقّ هو الذي يحيي ويُميت >> (42) ﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾. وهي **الحجة الأولى** التي اعتمدها سيدنا إبراهيم لإثبات صدق دعواه وإبطال دعوى خصمه الملك الكافر (النمرود) ، إذ لا أحد من المخلوقات يمكنه أن يشارك الخالق سبحانه صفة الإحياء والإماتة. لكن النمرود يردّ على إبراهيم بحجة من جنس حجته بقوله:﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾. وهي **حجة مغالطة** مردّها إلى تجاهله المطلوب الحقيقي من قول إبراهيم:﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ فعمد إلى البرهنة على شيء آخر وهو قدرته على الإحياء والإماتة: فقام بإحضار شخص محكوم عليه بالموت ثمّ عفا عنه، وحكم على آخر بريء بالموت. و حجة النمرود المغالطة هذه، هي حيلة منه وتمويه وتضليل للحضور من أجل المحافظة على مكانته وتعزيز سلطته كملك.

ويمكن تمثيل الحجج التي ساقها النمرود في مناظرته لنبي الله إبراهيم - عليه السلام- في هذه المرحلة وفق السلم الحجاجي التالي:

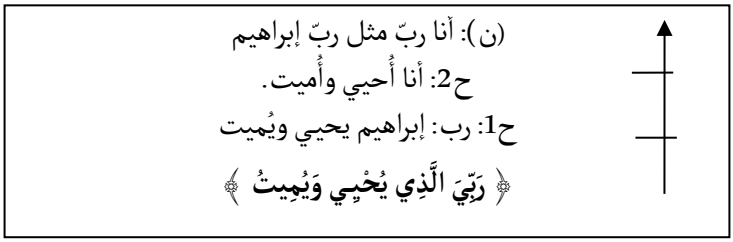

ثم تأتي مرحلة الحسم من هذه المناظرة حينما يردّ نبي الله إبراهيم على مغالطة النمرود بقوله: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ...**﴾. وهي حجة أفحمت الخصم (النمرود) فلم يستطع أن يكابر أو يعارض كما فعل في المرة السابقة. ولمّا علم عجزه وعدم قدرته على ذلك بُهت ولم يتكلم وقامت عليه الحجة. قال تعالى: ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾. وهكذا تحققت النتيجة التي سعى نبي الله إبراهيم إلى إثباتها من البداية وهي إثبات الألولهية والربوبية لله - سبحانه- وحده، وإبطال دعوى خصمه (النمرود) في هذه المناظرة.

ويمكن توضيح حجج نبي الله إبراهيم- عليه السلام - من خلال السُّلم الحجاجي التالي:

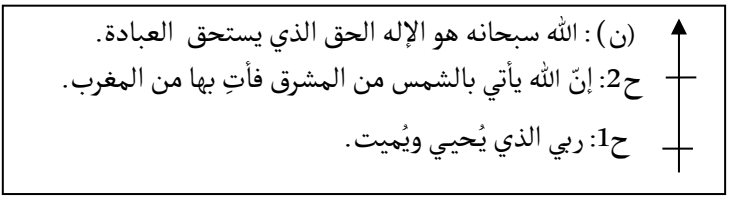

و**خلاصة** ما جاء في هذا المقال، فإنّ الخطاب القرآني خطاب حجاجي موجّه إلى التأثير في آراء المخاطبين وسلوكاتهم، واستمالة نفوسهم وتوجيه عقولهم، لذلك نجده يوظف أساليب وآليات حجاجية كثيرة ومختلفة في خطاب السورة؛ منها:

- **الروابط الحجاجية**؛ وهي كثيرة في آي السورة وتكمن قيمتها الحجاجية في كونها تقوم بوظيفة الرّبط الحجاجي بين القضايا، وترتيب درجاتها بوصفها حُججا في الخطاب.

ومن هذه الروابط الحجاجية (الواو)؛ والتي لا يقتصر دورها على مجردّ الجمع بين الحجج فحسب، بل تعمل على تقوية الحجج بعضها ببعض لتحقيق النتيجة المرجوّة. وهي من الروابط الحجاجية المدعّمة للحجج المتساوقة أو المتساندة (التي تخدم نتيجة واحدة) وأمثلة ذلك كثيرة في خطاب السورة، ومنها قوله تعالى: ﴿**آلم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾.(43) فقد قام الرابط الحجاجي (الواو) في هذه الآيات بوظيفة الجمع بين عدد من الحجج المتساوقة، كما قام بترتيبها لتحقق النتيجة المرجوّة؛ إنّها الهدى الحاصل في الدّنيا والفلاح الحاصلُ في الآخرة.(44) ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾.

- **الأفعال الكلامية**؛ ومن أمثلتها فعل الكلام التوجيهي (الاستفهام) الذي يُعدّ من أنجع الأفعال الكلامية حجاجا، وهو ما يعتمد عليه كثيرون في فعلهم الحجاجي.

ومن نماذج الأفعال الكلامية التي يتجلّى فيها الحجاج؛ الاستفهام التقريري؛ كونه أشد إقناعا للمرسل إليه، وأقوى حجّة عليه، كما في قوله تعالى مخاطبا ملائكته: ﴿ **قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾.(45) فالاستفهام في قوله: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ**... ﴾ الغاية منه هي التقرير لإقامة الحجّة على المخاطبين.

- **الاستعارة الحجاجية**؛ وهي من الآليات اللغوية التي يمارسها المتكلم بقصد توجيه خطابه، لأجل تحقيق أهدافه الحجاجية. وهي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التواصلية والتخاطبية.

ومن الاستعارات الحجاجية الواردة في خطاب السورة قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾.(46) فقد شبّه الحقّ — سبحانه - الكفار في شدّة كفرهم وإعراضهم عن الحقّ ورفضهم له -على سبيل الاستعارة- كمن جُعل على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم ختمٌ وغطاء مُحكم بحيث لا يصل إليها شيء من الإيمان.

- **التشبيه (التمثيل)**؛ وهو من أبرز أساليب الحجاج والإقناع، فقد استخدمه القرآن الكريم كمعيار للصدق والدّقة في التعبير بالصورة لإبراز المعاني المجرّدة في صور حسية رائعة وموجزة لها وقعها في النّفس. ومن الآيات التي ورد فيها هذا الأسلوب؛ قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.(47)

- **المناظرة**؛ وهي من الآليات الحجاجية التي تعتمد على المحاجة والاستدلال، وكافة وسائل الإقناع لردّ حجة الخصم. ومن هذا النوع في خطاب السورة نجد حجاج نبي الله إبراهيم — عليه السلام- مع الملك (النمرود) بشأن صفات الله ربّ العالمين في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**. (48)

الهوامش والإحالات:

(1)- ينظر: آمنة بلعلى، الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار، منتدى عربيات. www.arabiat.com

(2)- ينظر: رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، مجلة علم الفكر، الكويت، مجلد 34 العدد 1، 2005، ص 234، 235.

(3)- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت لبنان، ط1، 2004.ص 508.

(4)- البقرة، الآيات من 1 إلى 5.

(5)- ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984 ج1، ص 246.

(*) السُّلم الحجاجي: هو عبارة عن علاقة ترتيبية لمجموعة من الحجج يمكن أن نرمز لها كما يلي :

حيث (ب) و (ج) و (د) حجج وأدلة تخدم النتيجة (ن).

فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما علاقة ترتيبية معينة، فإنّ هذه الحجج تنتمي إلى السلم الحجاجي نفسه، فالسلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجهة. ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 21

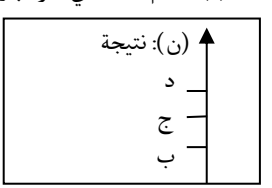

(6)- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010 ص 73.

(7)- البقرة، 120.

(8)- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 693.
(9)- المرادي (ت 749هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص 616.
(10)- البقرة، 11، 12.
(11)- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 58.
(12)- ينظر: رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، ص233، 234.
(13)- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 28، 29.
(14)- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 27
(15)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 519، 520.
(16)- البقرة، 32.
(17)- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 413.
(18)- البقرة، 30.
(19)- البقرة، 14.
(20)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2004، ص 330.
(21)- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 289.
(**)- الحجاج عند (فان إيميرن V.Eemeren) و (غروتندورست R.Grootendorst) هو فعل لغوي مركب تتجلى فيه القصدية في عرض الحُجة بغرض تدعيم النتيجة المقدمة.
(22)- ينظر:عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 482.
(23)- ينظر: المرجع نفسه، ص484.
(24)- البقرة، 33.
(25)- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص219.
(26)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 485.
(27)- البقرة، 246.
(28)- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص485.
(29)- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 108.
(30)- البقرة، 6، 7.
(31)- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 104.
(32)- ينظر محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، مون للطباعة والتجليد، القاهرة، ط1، 1993، ص 181.
(33)- ينظر: ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، د ط، 1939 ج1، ص388.
(34)- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1988، ص 75.

(35)- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص 92، 93، 94.
(36)- البقرة، 16، 17.
(37)- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص302.
(38)- البقرة، 261.
(39)- ينظر: بن عيسى باطاهر، أساليب الإقناع في القرآن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، د ط، 2000، ص 106، 109.
(40)- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص 225.
(41)- البقرة، 258.
(42)- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص33
(43)- البقرة، الآيات من 1 إلى5.
(44)- ينظر:ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص246.
(45)- البقرة، 33.
(46)- البقرة، 6، 7.
(47)- البقرة، 16، 17.
(48)- البقرة، 258.